السنة السادسة العدد ٢٣ ١ كانون اول سنة ١٩٠٣

المشرق

الآداب العربيَّة في عهد الجاهلية

خطبة ألقاها الأب لويس شيخو اليسوعي مدرّس الآداب العربيَّة في المكتب الشرقيّ

أيها السادة

انَّ من يطرق سمعهُ لاوّل مرَّة اسمُ الجاهليَّة يأخذهُ ضربٌ من الاستنكاف والنفور فيتخيَّل انَّ الاعصار التي سبقت النهضة العربيَّة انَّما كانت اَيامًا طبَّق عليها الجهل وخيَّم فوقها رواق الهمجيَّة فلا يرى في العرب الَّا قومًا من شذَّاذ الآفاق او لصوص البراريّ. الغزو دأبهم والنهب ديدنهم. لا ينبعث من لغتهم سوى رائحة النوق والجمال

ذلك وهمٌ استولى على ذهن بعض الذين يرون من الامور غير صفوتها فيجتزئون عن لبابها بقشرتها ولو كانوا من المنصفين لجرَّدوا نظر العقل واعملوا رائد الفكر لتمحيص الحقائق فيَبرز لهم الصريح عن جانب المَتْن

وكأني بالحضور يوقفوني هنا قبل خوضي في الميدان قائلين فما قولك اذن بالجاهليَّة ؟ أفيكون هذا الاسم بلا جسم ؟ او هو سمةٌ من العار وُسم بها قدماء العرب فلزمتهم ظلمًا وقُرعت بها صفاتهم سفهًا وساحتُهم مع ذلك بريئة منها ؟ كلَّا ليس الامر كذلك ولولا انَّ العرب قبل الاسلام استحقُّوا من بعض الوجوه بان يُنبذوا بهذا اللقب لما عُرفوا بهِ ولا عُرف بهم. وان سأل السائل عن هذا الوجه الذي استوجب لهم تقريعَهم بالجاهليَّة اجبنا انهُ التوثُّن وعبادة الاصنام التي شاعت في قبائل العرب اذ لم يعرفوا

Digitized by Google

الله حقّ معرفتهِ. ولنا على قولنا عدّة شواهد تبيّن انّ هذا الاسم انّما يدلُّ على جهل الله تعالى فقط لا على همجيّة فيكون نصيب العرب في ذلك كنصيب كلّ الامم المتمدّنة التي جارت عن سبيل الحقّ فعبدت الطواغيت. واذا استفتينا اهل اللغة عن معنى هذه الكلمة أيّدوا قولنا فاجابوا ان الجاهليّة أنْ يُظَنَّ بالله غير الحقّ وانّها الكفر وانّها الوثنيّة وقسموها الى جاهلية أولى والى جاهليّة ثانية ارادوا بالاولى كفر البشر من آدم الى نوح وقيل من آدم الى المسيح وخصّوا الثانية بالعرب. قال المطرّزيّ: «دُعي جيلُهم جيل الجاهليّة لِما كان عليهِ العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبُّر». فثبت اذن انّ اسم الجاهلية محصور في الشرك والكفر ولم يُطلَق بادئ بدء الّا على القبائل التي لم تعرف الحقّ سبحانه وتعالى. واذا توسّع الكتبة بعدئذٍ فاطلقوهُ على كل العرب فما ذلك الّا على سبيل المجاز والكناية كما يُطلق اسم الجزء على الكل لملازمتهِ لهُ. لا بل وردت هذه اللفظة ايضاً بعد الاسلام بمعنى الأنفة والكِبْر وفي كتب اللغة: انّ في فلانٍ لجاهليّةً اي تجبُّرًا وخرقًا

فان قرَّ ذلك ورسخ في عقول الحضور تمهّد لنا المجال فنقول ان العرب بلغوا قبل الهجرة مقاماً في الحضارة قلّما بلغهُ الشعوب القديمة. وكأني ارى السامعين يأخذهم الاندهال فيحتجُّون هنا عليَّ ويلومونني على قلّة معرفتي بالتاريخ. فاين يا ترى العرب من البابليين والمصريين واليونان والرومان والهند والصين. هب انّهم ملكوا على شبه جزيرتهم او قُل بالاحرى على صحاريهم الجرداء وبواديهم القاحلة أفيجوز ان تنسب لهم مجاراة الشعوب المتمدّنة. فاين الثريّا من الثرى والدرُّ من الحَصَى

سادتي هلمُّوا بنا ننتقل على طائر الفكر الى مواطن العرب فنرى ما كانوا عليهِ في القرون الغابرة وما طرأ عليهم من الطوارئ لعلّنا نقف على شيء من مفاخرهم ثم نعود الى ذكر آدابهم التي عليها مبنى كلامنا

جزيرة العرب مربّع مستطيل موقعهُ بين الدرجة ١٢° و ٣٥° من العرض الشمالي وبين ٣٥° و ٥٩° من الطول الشرقي تمتدُّ شمالًا من بحر المتوسط الى خليج العجم وجنوباً من آخر حدود بحر القلزم الى عمان فيبلغ معظم عرضها ١١٥٠ ميلًا من الاميال الجغرافيّة ومعظم طولها ١٤٠٠ ميل ومساحتها ١,١٠٠,٠٠٠ ميل مربّع وهي تجاور

Digitized by Google

الشام وما بين النهرين والعراق وفارس فيهـا البطون والحزون والصحارى والارياف. هناك اليَمَن الغنيَّة برافقها الشهيرة بمعادنها ذات الاراضي المخصبة والارزاق الدارَّة والحدائق الغنَّاء قد ابتنى لها ملوكها سدًّا يخزن لهم مياه الامطار والعيون في وادٍ بين جبلين بحيث تنال كلُّ جهة حاجتها من المياه في ريّها

هناك تهامة تحظى من خيرات بحر القلزم باوفر سهم واوفى نصيب. هناك الحجاز القائم بجباله في وجه العدوّ كأنهُ سور منيع لا تقوى على خرقهِ قوّات الفاتحين حتى قال احد شعراء ذلك الزمان :

ونحن غلبنا بالجبال وعزّها ونحن ورثنا غَيْثًا وبُدَيْنا

هناك نجدٌ واراضيهِ العالية وتربتهُ الجيِّدة وهواؤهُ الطيّب

سقى الله نجدًا والسلامُ على نجدٍ ويا حبَّذا نجدٌ على القرب والبعدِ

هناك اليمامة او العَروض وسهولها المتَّسعـة تتَّصل بها بلاد البحرين او الأحساء على طول الخليج الفارسي حيث مغاص اللؤلؤ الشهير

تلك هي اخصّ اقسام جزيرة العرب بيد انَّ نفوذهم لم يقف عند هذه الحدود حتى اتَّصل بكل الانحاء المجاورة لبلادهم بل بلغ الجهات القاصية منها فصدق فيهم كلام الله الى هاجر لمَّا تراءى لها ملاك الرب فقال عن ابنهـا اسمعيل (تك ٢١ : ١٨): « اني جاعلهُ امَّةً كبيرة ». فانَّ الامم العربيَّة انتشرت من جهات الشمال فملكت العراق وبلغت فارس وتولَّت مـدَّةً على بابل حتى رجَّح علماء عصرنا ان اوَّل ملوكها كانوا من العرب. امتدَّت في ما بين النهرين فسكنت قبائلهـا على ضفَّات دجلة والفرات وتربَّعت بديار ربيعة وديار بكر الى الرها حيث ملك منهم الاباجرة. تطالَت الى الغرب فدخلت بلاد الشـام وضربت خيامهـا في جوار حمص وحماة وحلب بل صارت هذه المدن مدَّةً تحت حوزتهم. وزحف قوم منهم الى لبنان وهم الايطوريُّون فتوطَّنوا رأس الشقعـة وجهات البترون وجبيل وتدفَّق سيلهم الى البقاع فاتَّخذوا لهم فيها المدن كعين جرّ التي غلبهم عليهـا پمپيوس القائد. وكان النبَط عربًا ملكوا على بادية الشام وبنوا المدن ومصَّروا الامصار ولا تزال آثارهم الجليلة حتى اليوم تحيّر العقول. منها الصروح والقلاع والقصور وصفهـا السيَّاح المحدثون الذين عاينوها. امَّا

Digitized by Google

تدمر فلا يجهل احد اسم زينب وبني اذينة الذين اتخذوا تلك المدينة كتخت لملكة عظيمة الجاه واسعة الثروة

هذا وزاحم العربُ اليونان ثم الرومان في ملك دمشق ولم ينل قياصرة رومية منهم هدنةً حتى جعلوهم عُمَّالًا لهم في حدود الشام وفلسطين وجلس منهم على سُدَّة القياصرة فيلبُّس العربي اوَّل الملوك المتنصّرين. امَّا جنوبي فلسطين فكثيرًا ما تعدَّى العرب ثغورَ بلادهم فاحتلُّوا شبه جزيرة سينا وملكوا برّيَّة فاران ولم تردّهم سطوة المصريين بل بلغت بهم جرأتهم الى ان ناووا مملكة الفراعنة فدحروهم وجلسوا في دست سلطتهم كما دلَّت على ذلك الكتابات الهيروغليفيَّة فانبأت العلماء بعظمة دولة هؤلاء الملوك المعروفين بالرعاة الذين كانوا في أيَّام ابراهيم الخليل الى عهد يوسف الحسن

وممَّا تفرَّد بهِ قدماء العرب انهم كانوا اذا فتح بلادهم فاتح كالبابليين واسكندر ذي القرنين والرومان استكانوا لهم. قليلًا خاضعين ثمَّ عادوا الى عزّهم وترى تلك الدول قد انقرضت وماتت والعرب لا يزالون في شدَّتهم لم يفقر دمهم وتضعف قواهم

وان حصرنا النظر في جزيرة العرب كما كانت قبل ظهور الاسلام وجدنا فيها الممالك الزاهرة والدُّول الفاخرة. ذات الشوكة والبأس والقوَّة والمراس. في جنوبها التبابعة من بني حمير رجحت كلمتهم واشتدَّت سلطتهم فجيَّشوا الجيوش ودوَّخوا الاقطار النازحة فخفقت فوقها رايتهم ولم يفنوا حتى ابقوا لنا من مآثرهم عنوانًا منها الابنية الفخيمة التي لم تدرس حتى يومنا اطلالُها كقصر غمدان في ظاهر صنعاء كان عجيب البنيان ذا سبع طبقات حسان. ومنها كعبة نجران المعروفة بالقُلَيس. ومنها أخربة مأرب العاديَّة. ومنها الكتابات العديدة بالخطّ الحميري او المسند التي استرق اسرارَها المستشرقون بما طُبعوا عليهِ من الجلد والثبات. وفي شمالها المناذرة الذين نشروا لواء سلطتهم في العراق واستولوا على السواد ما بين الحيرة والانبار وسائر الارياف المجاورة للبادية حيث السهول الباسقة النخل العجيبة الخصب. وبلغ مكانهم من ملوك العجم ما ادَّى بالاكاسرة ان يكلوا اليهم بتربية ولاة عهدهم. ولبني المنذر ايضًا المباني العظيمة كالاديرة والبيع وكذلك القصور الفخيمة التي عدَّدها المتلمّس :

Digitized by Google